

محاكمة قصاص

للأستاذ عبد الوهاب الأمين



هذا حديث كنت شاهده عرضاً ، وكان قد جرى بين صديق لي من القصاصين وبين إحدى الإنجليزيات ، لم أشارك فيه إلا بالسمع فقط وإلا بإشارة عارضة أو نظرة تأييد وموافقة عندما كان يفزع إلى أحد المتحاذين في غضون الحديث ، فكنت احصم بالصمت طوال سيره

وقد بدأ هذا الحديث أول ما بدأ تغلب عليه مسحة من التزمّت التي يقتضيه مثل هذا الموقف ، ثم أخذ يتحدث شيئاً فشيئاً إلى الكثير من اللجاجة وقليل من قسوة اللفظ كنت أرى أنهما غير مصطفين

وقد سجلت هذا الحديث لأنه يمثل متهماً يدافع عن نفسه في اتهام لا يمكن أن يبرز في غير هذا السياق من الأخذ والرد ، ولأنه يمثل مفهوماً للأدب الحديث بين عصرين وحضارتين وجنسين



قالت الجليلة لرفيقي بمد تطور الكلام — وكان في حفة من المحلات العامة — التي بدأ كما يبدأ كل كلام بين غربيين ببعض الجملات المروفة :

— علمت أنك تكتب القصص الصغيرة ، فهل كان ذلك منك اختياراً ، أم أنك كنت تفتني أثر أحد من الأدباء الذين أعجبت بهم ؟

فأجاب صاحبي :

— من المؤكد أنه اختياري الخاص ؛ وإن كان قصدك بالاعتناء « التقليد » ، فإن القليل عندما من أدباء العربية من يكتبون القصص الصغيرة والأهل منهم من يجيدها . وإن كان قصدك اعتناء سير الأدب الغربي ، فأنت تعلمين أن مثل هذا لا يمكن أن يسمى اعتناء أو تقليداً ، لأن جميع الأدباء الغربيين تقريباً يكتبون القصص ، بل لهم لا يكتبون سواها ، فلا يمكن أن يكون كل واحد مقلداً لكل واحد

— أنا لا أفوق بين الاعتناء والتقليد ، وإن كنت في الحقيقة لا أرى في التقليد الميب التي ترونها فيه أنهم معشر للشرقيين ،

فالحقيقة أن الابتكار نفسه هو تقليد مضاعف — قد يكون ذلك حقاً ، ولكن رغبة الأديب في القالب التي يفضلها لأدب رسالته الأدبية لا يمكن أن يبت فيه غيره هو . ولا أظن أن هناك من الأدباء الناجحين من سار على طريق مفرح . والحال في هذا كالحال في جميع الأشغال والأعمال ، فلا يفرض النجاح لعمل ما إذا كان ذلك العمل غير مرغوب فيه ، وإذا لم يكن الإلهام من المجهول هو السائق الأول له — لماذا فرضت أن يكون العمل غير مرغوب فيه إذا كان تقليداً ؟ قد تجيد عملاً ما ولا تدري أنك تجيده حتى يتضح ذلك بمناسبة ما !

— إن ميلتي إلى كتابة القصص الصغيرة ليس من هذا النوع ، فإني لم أكتشفه في نفسي اكتشافاً ، بل وأتقني مدفوعاً إليه — وكيف كنت تشعر عندما كتبت أول قصة ؟ — لا أذكر أول قصة كتبتها ، ولكني أذكر أول قصة لي نشرت ، وقد كانت سخيفة !

— لم أكن لأستغرب هذا القول منك ، ولني أستغربه إذا سمعتك بعد عشر سنوات تقول عن قصتك التي نشرت أمس أنها سخيفة ! إن في كتابة القصص لجالاً كثيراً للسخف ، والغريب أن أول من ينبه إليه بعد فوات الوقت هم كتابه ! رأيت صاحبي يتقبل هذا التهم بصبر وأناة ، ويحاول أن يدور بالحديث غير مداره ، ولعلها هي الأخرى أدركت أنها قاسية بعض القسوة في قولها ذاك فأردفته قائلة :

— كنت أقصد أن أقول هنا على سبيل للدخ لكتاب القصة لا على سبيل القدح فيهم ، فالحق أن الاعتراف بالواقع لا يكون أكثر تجلياً مما هو عليه لدى أرباب القصة قال صاحبي :

— لملك صادقة في قولك هذا . إن « دستوخسكي » هؤلاء لم يكن يتسنى له أن يبلغ من الفن تلك القدوة التي بلغها لو لم يكن كما وصفت . وكذلك « ل . ه . لورنس » — من كتابكم — فهو من عباد الواقع ومن أربابه الذين خدموه فساتته وهدمت إلى الأمل قليلاً ، وكأنها تريد أن تدعوه إلى معركة :

— هل تحب « لورنس » ؟

— كثيراً جداً

قله على صورته إلى اللغات الأخرى ، وعلى الأخص منه الشعر ،
وليس كذلك الأدب الروسى أو غيره .

— قد يكون هناك سبب أساسى وهو أن اللغة العربية عميقة
الأداء وأن بعض تعابيرها قد تجمدت كما يقولون ، ولكن المهم
فى نظرى هو سير لغتنا بقوة الاستمرار فقط مدة طويلة من
الزمن لا بقوة الحياة كما كان ينبئ لها أن تسير ، ولذلك فإلها
تختلف عما سواها من اللغات فى الأداء ، وعليها أن تجتاز كثيراً
من العقبات قبل أن تستعيد ماضيها الحافل

وهنا حدثت فترة فى الحديث واتصل نظر للتجاوزين بما يجرى
فى القاعة من أخذ ورد ثم عطف المتحدث مرة أخرى إلى صاحبه
وسأله :
— هل تفضل طريقة غير طرية القصص فى الأداء والخلق
كأديب ، أم أنك قانع بفنك ؟

فأجابها صاحبه بعد فترة وجيزة بتؤدة :
— كنت أتمنى أن أكون شاعراً ولكن ذلك ليس بيدي ،
وأظننى لا أعدو الشاعر فى وضئى الآن كقصاص ، ولكنى كما
قلت لك لا أفضل على كتابة القصة شيئاً
— ذلك ما ظننت

وبعد برهة وجيزة أخرى رأيت صاحبه ينحدر إليها سائلاً :
هل لى أن أستوضح للمبداً أمراً ؟
— نعم
— ماذا تفضلين من أنواع الأدب ؟
— القصة

— وهل أنت قصاصة ؟
فابتسمت المحدثه ابتسامة رطبية وأومأت إليه برأسها :
— لا أكذبك يا سديقى ! إننى أنا أيضاً قصاصة !
ففتحت عيني مستغرباً ، وكذلك كان صاحبه ، قد جاء
جوابها هذا أغرب ما فى الحديث ! **هيم الرواهات الروسى**

— وماذا يمجيك فى فنه ؟

— إذا طرحنا بيانه الرائع وقدرته الفنية على الأداء جانباً ،
فإنى أعجب ، بالإضافة إلى ذلك ، بأجماهه الأدبى ، ولعل من
الزصبة الذين يسمونه بالنبوة بين كتاب جيله !
— لملك مفرق فى تمصك ... إن « لورنس » أديب
ولا شك ، ولكنه ليس كما وصفته . إنه أديب منافق ! ولكنى
لا أريد أن أجادلك فى موضوع « لورنس » بل أود أن تشرح لى
كيف تكتب قصصك

— إن كان قصصك وصف الكتابة ونوع المؤثر الذى يحدو
إليها ، فإنى فى الحقيقة لا أقدم على كتابة قصة قبل أن يترع بى
نازع إلى الكتابة . ولا أظن أن وضئى فى ذلك يختلف كثيراً عن
وضع الشاعر عند ما تتكون فيه الرغبة إلى نظم القصيد . وفى
أكثر الأحيان أراينى أكتب قبل أن يتكون فى مخيلتى كيان
القصة أو عمودها الفقرى كما يصطلحون !

فسأله المحدثه بابتسامة غامضة :
— ألا ترى أنك تخلق من أبطال قصصك مخلوقات مبتسرة !
أليس هذا الإنشاء اعتباطاً ؟
فأجاب صاحبه القصصى وكان قد رفع قدح الشاى إلى فمه
فأنزله مسرعاً :

— إلى لا أعدو فى ذلك ما تصنعه الطبيعة فى خلق أبنائها !
وأظن أن مهمة الفنان فى هذه الحياة هى أن ينوب عن الطبيعة الأم !
فكان هذا الجواب أرضاه ، فقالت وهى تهز رأسها هزّة الموافق :

— ذلك صحيح ... وماذا عن العقدة (Plot) ؟
— هنا موضع الخلاف كما يقولون ، فأنتم فى الغرب تقيمون
لها الوزن كل الوزن ؛ أما نحن ها قليلاً ما نعى بها عنايتكم
هذه ، وأظن أنك تلاحظين أن آداب الأمم الغربية الغربية إلى
الشرق أقل نزوعاً إلى « العقدة » فى قصصها منها فى الأمم الضاربة
إلى الغرب . وأقرب مثال إلى ذلك فى نظرى هو الأدب الروسى
الذى نستطيع أن نقول : لا عقدة فيه

— ولكن أدبكم على ما أسمع ليس فيه ذلك العمق الموجود
فى الأدب الروسى

— ذلك لأن أدبنا لا يزال فى طور التكوين
— وقد كان الأدب الروسى كذلك فى بداية أمره ،
ولكنه لم يكن كأدبكم هذا الذى نسمع به ولا نستطيع أن نراه .
إن نقدة الأدب عندنا يرون أن أدبكم العربى المعاصر لا يمكن

« هكذا أغنى »

البرنامه الثانى — للشاعر محمد حسن اسماعيل
يطلب من دار « الكتب الأهلية » بميدان الأوبرا